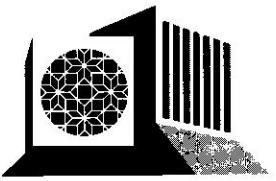

مجلـــــة

كلية الشـــريعة والـدراســـات الإســـلاميـة

العدد الثالث والعشرون ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م

الإعجاز البياني

في آيـة

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا... ﴾

(١٤٣: من سورة البقرة)

إعداد

د. شحادة أحميدي العمري

أستاذ التفسير المشارك

بكلية الشريعة والقانون - مسقط – سلطنة عمان

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذا بحث وجيز يبرز بعض مظاهر الإعجاز البياني في أعطاف آية ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1] هذه الآية الكريمة التي بينت مكانة الأمة الوسط عند ربها أحسن بيان، وأظهرت سر وصفها بالوسطية لتؤدي شهادتها على الأمم قاطبة يوم القيامة، وليكون الرسول صلى الله عليه وسلم هو الشهيد على هذه الأمة العظيمة.

ولذلك ارتأيت كتابة هذا البحث لاستنكاه ما في نظم هذه الآية الفذة من الفرائد والفوائد، ولبيان ما فيها من روعة الإعجاز ودقة الإيجاز.

وجاء البحث في ثلاثة مباحث وخاتمة.

المبحث الأول : الإعجاز البياني في قوله تعالى(وكذلك جعلناكم أمة وسطاً).
المبحث الثاني : الإعجاز البياني في قوله تعالى(لتكونوا شهداء على الناس).
المبحث الثالث: الإعجاز البياني في قوله تعالى(ويكون الرسول عليكم شهيداً).
وأما الخاتمة، فأعرض فيها خلاصة البحث.

والله أسأل أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعني به يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) الآية ١٤٣ من سورة البقرة.

المبحث الأول

الإعجاز البياني
في قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾

أولاً : مناسبة الآية لما قبلها.

لما ذكر الله سبحانه ما سيقول السفهاء في شأن تحول القبلة ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1] أتبع ذلك ببيان صفة مَنْ هداهم إلى صراط مستقيم، فقال تعالى﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ .

وبعد التعريف بالذين هُدوا إلى صراط مستقيم وجّه الخطاب إلى رسوله صلى الله عليه وسلم فقال ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

ومن بديع النظم أن الآية التي قبلها خاطبت الرسول صلى الله عليه وسلم، وعَرَضتْ للقبلة، وبينت أهل الهداية تعريضاً بأهل الغواية، فجاءت هذه الجملة ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...﴾ " معترضة بين جملة ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاء﴾ الخ، وجملة ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ الخ، والواو اعتراضية وهي من قبيل الواو الاستئنافية، فالآية السابقة لما أشارت إلى أن الذين هدوا إلى صراط مستقيم هم المسلمون، وأن ذلك فضل لهم ناسب أن يستطرد لذكر فضيلة أخرى لهم هي

---

(١) الآية (١٤٢) من سورة البقرة

(٢) الآية (١٤٣) من سورة البقرة.

خـــير ممـــا تقدم، وهي فضيلة كون المسلمين عدولاً خياراً ليشهدوا على الأمم؛ لأن الآيات الواقعة بعدها هي في ذكر أمر القبلة، وهذه الآية لا تتعلق بأمر القبلة"[١]

هـــذا ما دبجه يراع العلامة ابن عاشور عليه سحائب الرحمة، ولكنّ المتأمل في سياق الآية ولحاقها يضع يده على أسرار أخرى، ولطائف جمة، منها:

أولاً : تشـــريف المســـلمين الذيـــن خاطـــبهم ربهم بقوله ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَـــطًا..﴾ بـــأن جعـــل " الخطاب إلى المؤمنين بين الخطابين المختصين بالرسول صلى الله عليه وسلم لتأييد ما في مضمون الكلام من التشريف..." [٢]فقـــد خاطـــب الله رســـوله صلى الله عليه وسلم بقوله (قل لله المشرق والمغرب...) ثم قال له (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها...) وبيـــن هذين الخطابيـــن خاطـــب الله عبـــاده المهتدين إلى صراط مستقيم فقال (وكذلك جعلـــناكم أمـــة وســـطاً) أي صيّرناكم مسلمين، وهذه نعمة سابغة، ومنة عظيمة.

ثانياً: توســـط جملة (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) بين آيتي القبلة، " فإن الله تعالى اختار خير أماكن الأرض لتكون قبلة الناس، وهي وسط الأرض وخير بقعة فـــيها" [٣] ، وكذلـــك هذه الأمة وسط الأمم وخيرها؛ لأنها أمة التوحيد، أمة القـــرآن، أمـــة محمـــد صلى الله عليه وسلم، لذلك نالت هذا الشرف المؤبد المؤيد.

وإنـــك لتعجب من توسط آية الأمة الوسط بين آيتي القبلة، إذا علمت أنه قد ثبـــت علمـــياً بـــأن الكعبة المشرفة تقع في وسط الدنيا، فهي مركز جميع

---

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير٢/ ١٤- ١٥، الدار التونسية ١٩٨٤م.
(٢) أبو السعود : تفسير أبو السعود(٢١١/١)
(٣) أبوزهرة : زهرة التفاسير (٤٢٧/١).

خطــوط الطــول والعــرض، وفي ذلك دراسات جغرافية مشهورة ومعلومة ومنشورة، وهذا إعجاز بياني غيبي رائع حقاً.

تلكم بعض لطائف ارتباط هذه الآية بما قبلها، والله الموفق.

ثانياً : الإعجاز البياني في قوله تعالى(وكذلك جعلناكم أمة وسطا).

بدئــت الآيــة الكريمة بعبارة (وكذلك)، وهذا البدء فيه من بلاغة النظم وروعة الإعجــاز مــا يحير ألباب الألبّاء، فقد جاءت الواو - التي يظن الناظر إليها للوهلة الأولــى أنها حرف عطف- تحمل سمات الاستئناف، لأن الجملة المبدوءة بالواو هنا جديدة لا تشارك ما قبلها في الإعراب ولا في الحكم الذي يعطيه العطف، قال الأستاذ الإمــام محمــد عــبده: " وهذا لا يمنع أن يكون بين الجملة المبدوءة بواو الاستئناف وبيــن مــا قــبلها تناســب وارتباط في المعنى غير ارتباط العطف والمشاركة في الإعراب..." (١)

والدليل على كون الواو في قوله (وكذلك) استئنافية أن الآية الأولى عرضت وبينــت مــا يــتعلق بالقبلة ومن يهديهم الله إلى صراط مستقيم،وهذه الآية أظهرت أصحاب الهداية الأحقاء بها وهم الذين جعلهم الله أمة وسطاً، فالارتباط بينهما شديد ومكيــن، لكــنك لا تجــد ألفاظاً ملفوظة تعطف بالواو عليها، فناسب القول بأن هذه الواو من قبيل الواو الاستئنافية وهو ما صرح به العلامة ابن عاشور آنفاً.

وأمــا (كذلــك) فاختلفــت فيها أنظار المفسرين كذلك، مع اتفاقهم بأن الكاف للتشــبيه، وذلك اسم إشارة لكنّ اختلافهم نابع من دلالات هذه الكاف واسم الإشارة، وقبل عرض أقوالهم في نظمها، وما فيها من إعجاز بياني أذكر ما ذكره أهل البيان والــبلاغة فــي اللام والكاف المقترنين باسم الإشارة، قال الإمام السهيلي في نتائج الفكــر كلامــاً نفيساً رائعاً بيّن فيه سر مجيء اللام وكاف الخطاب مع اسم الإشارة،

---

(١) انظر: رضا، تفسير المنار ٢/ ٤٥٧- ٤٥٨.

أرى من المفيد نقله هنا، قال رحمه الله تعالى:" وكانت اللام أولى بهذا الموطن حين أرادوا الإشارة إلى البعيد، فكثروا الحروف حين كثرت مسافة الإشارة، وقللوها حين قلت؛ لأن اللام قد وجدت في كلامهم توكيداً، وهذا الموطن موطن توكيد، وقد وجدت بمعنى الإضافة للشيء، وهذا الموطن شبيه به؛ لأنك إذا أومأت إلى الغائب بالاسم المبهم، فأنت تشير إلى من تخاطب ومقبل عليه لينظر إلى من تشير، إما بالعين وإما بالقلب، ولذلك جئت بكاف الخطاب فكأنك تقول له: لك أقول، أو: لك أرمز بهذا الاسم. ففي اللام طرف من هذا المعنى، كما كان ذلك في الكاف، وكما لم تكن الكاف هنا اسماً مضمراً، لم تكن لام جر، وإنما في كل واحدة منهما طرف من المعنى جميعه، فلذلك خلعوا من الكاف معنى الاسمية، وبقي فيها معنى الخطاب، واللام كذلك إنما اجْتُلِبَتْ لطرف من معناها الذي وضعت له في باب الإضافة..." [1] هذا ما أملاه العلامة السهيلي رحمه الله تعالى على كاتبه، فرشحت أسلات قلمه بهذه النكت والعيون، وهي لطيفة من لطائفه البيانية الكثيرة الممتعة.

وبعد بيان الأسرار النحوية والبيانية في اقتران لام البعد وكاف الخطاب باسم الإشارة (ذا) أعرض تالياً أقوال أساطين التفسير، وفرسان البيان في عبارة(وكذلك)، فأقول وبالله التوفيق، ومنه السداد إلى أقوم طريق.

لقد أطنب الإمام أبو حيان في بيان أسرار النظم الكامنة في قوله تعالى (وكذلك)، وقد أفاد منه الكثيرون، قال رحمه الله تعالى:" الكاف للتشبيه، وذلك: اسم إشارة ، والكاف في موضع نصب، إما لكونه نعتاً لمصدر محذوف، وإما لكونه حالاً، والمعنى: وجعلناكم أمة وسطاً جعلاً مثل ذلك"[2] ثم عرض الإمام أبو حيان للمشار إليه بقوله(وكذلك) فقال:" والإشارة بذلك ليس إلى ملفوظ به متقدم؛ إذ لم يتقدم في الجملة السابقة اسم يشار إليه بذلك، لكن تقدم لفظ (يهدي) وهو دال على المصدر

---

(١) السهيلي: نتائج الفكر، ص٢٢٨.
(٢) أبو حيان، البحر المحيط ١/ ٤٢١.

وهو الهدى، وتبين أن معنى(يهدي مَنْ يشاء إلى صراط مستقيم) يجعله على صراط مستقيم، كما قال تعالى(مَنْ يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم)[1] قابل تعالى الضلال بالجعل على الصراط المستقيم، إذ ذلك الجعل هو الهداية، فكذلك معنى الهدى هنا هو ذلك الجعل.

وتبين أيضاً من قوله (قل لله المشرق والمغرب) إلى آخره أن الله جعل قبلتهم خيراً من قبلة اليهود والنصارى، أو وسطاً، فعلى هذه التقادير اختلفت الأقاويل في المشار إليه بذلك" [2]

وقبل أن أعرض الأقاويل أرى من المناسب والمفيد أن أوضح وأبين بعض لطائف كلام الإمام أبي حيان عليه رحمة الله تعالى.

أولاً : أوما تعبيره:" والإشارة بذلك ليس إلى ملفوظ به متقدم" إلى كون الواو استئنافية وليست عاطفة كما ظن بعض المعربين، ولكن ذلك لا يمنع من وجود ترابط بين الجملتين.

ثانياً: إن ما ذهب إليه أبو حيان من أن لفظ يهدي دال على المصدر وهو الهدى، هو القاعدة المعتمدة، إذ الفعل في الجملة يدل على مصدر محذوف، والجملة المبدوءة بالمصدر على الرغم من كونها اسمية، لكنها في الحقيقة أقرب إلى الفعلية لوجود فعل محذوف مقدر، وقد يجتمع في الجملة الفعل والمصدر إذا أريد التوكيد أو إزالة الغموض أو نفي القول بالمجاز ليفهم من مجيء المصدر مع فعله أن الحقيقة هي المرادة كقوله تعالى(وكلم الله موسى تكليماً)[3] وفي ضوء ما بينت فإن الفعل (يهدي) في قوله تعالى (يهدي من

---

(١) سورة الأنعام، آية(٣٩).
(٢) أبو حيان، البحر المحيط، ١/ ٤٢١.
(٣) سورة النساء، آية(١٦٤)

يشاء إلى صراط مستقيم) يكمن في ذاته المصدر الدال عليه، أي يهدي هداية، هذا ما رغبت بيانه في هذه المسألة النحوية البيانية لتعلقها بالنظم.

ثالثا: أبدع الإمام أبوحيان بالربط المحكم المتين بين الهداية في قوله (يهدي) وبين قولـه (جعلـناكم)، واعتمد في حجته وبيانه آية كريمة صريحة الدلالة، قوله تعالى (من يشأ الله يضلله، ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم)، وهذه بديعة من بدائع أبي حيان في تذوقه لنظم القرآن الكريم.

بعـد هذه الإيضاحات والتوضيحات أذكر تالياً الأقاويل التي ذكرها أبوحيان في بحره ، قال رحمه الله تعالى: " قيل المعنى: أنه شبه جعلهم أمة وسطاً بهدايته إيّاهم إلـى الصراط المستقيم، أي أنعمنا عليكم بجعلكم أمة وسطاً مثلما سبق إنعامنا عليكم بالهداية إلى صراط مستقيم، فتكون الإشارة بذلك إلى المصدر الدال عليه يهدي، أي جعلـناكم أمة خياراً مثلما هديناكم باتباع محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الحق.

وقـيل المعنى: أنه شبه جعلهم أمة وسطاً بجعلهم على الصراط المستقيم، أي جعلـناكم أمة وسطاً مثل ذلك الجعل الغريب الذي فيه اختصاصكم بالهداية، لأنه قال (يهدي من يشاء) فلا تقع الهداية إلا لمن يشاء الله تعالى.

وقيل المعنى: كما جعلنا قبلتكم خير القبل جعلناكم خير الأمم.

وقـيل المعنى: كما جعلنا قبلتكم متوسطة بين المشرق والمغرب جعلناكم أمة وسطاً.

وقـيل المعـنى: كما جعلنا الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمة وسطاً دون الأنبياء وفوق الأمم"[1].

---

(١) أبو حيان، البحر المحيط، ١/ ٤٢١.

هـذه الأقـوال أوردهـا الإمام أبو حيان، وسكت عنها على الرغم من تعبيره بصـيغة الـتمريض (قـيل)، لكـنه استثنى القول الأخير واستبعده دون بيان سبب الاستبعاد فقال: " وأبعد من ذهب إلى أن ذلك إشارة إلى قوله تعالى (ولقد اصطفيناه في الدنيا)، أي: مثل ذلك الاصطفاء جعلناكم أمة وسطاً" [١]

وأما السمين الحلبي[٢] تلميذ أبي حيان فوافق شيخه دون تعقيب أو تعليق.

ويظهـر لي أن الأقوال الخمسة الأولى التي ذكرها أبوحيان مقبولة ومعقولة لأنهـا لا تخـرج عن سياق الآية السابقة، وهو ما ألمح إليه أبو حيان قبل عرضه للأقوال، فبين هذه الأقوال وسياق الآية تناسب وترابط.

أمـا القـول الـذي اسـتبعده أبو حيان، فأوافقه على الاستبعاد لا لأنه الإمام الجهـبذ، والمفسر البليغ، بل لأن الإشارة إلى آية (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا مـن سفه نفسه، ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين) [٣] فيها بُعـد؛ لأن هذه الآية هي الآية الثلاثون بعد المائة من سورة البقرة، وآيـة (وكذلك جعلـناكم أمـة وسطا...) هي الآية الثالثة والأربعون بعد المائة من السورة نفسها، والله أعلم.

أمـا الإمام الزمخشري صاحب الكشاف فكشف عن المعنى بجملة واحدة جزلة قـال رحمـه الله تعالى: " قولـه تعالى(وكذلك جعلناكم) ومثل ذلك الجعل العجيب جعلناكم (أمة وسطاً)" [٤]

وقد تظاهرت أقوال شراح الكشاف، وأصحاب الحواشي على تفسير البيضاوي فـي بسط وشرح عبارة الزمخشري، وممن حفل بها وبالتعليقات عليها العلامة ابن

---

(١) أبو حيان، البحر المحيط، ١/ ٤٢١.
(٢) السمين، الدر المصون، ١/ ٣٩٢
(٣) سورة البقرة ، آية(١٣٠).
(٤) الزمخشري، الكشاف، ١/ ٢٢٤.

عاشـــور في التحرير والتنوير[1]، لكنه لم يشر إلى الأقوال التي ذكرها صاحب البحر المحيط من قريب أو بعيد.

أمـــا القاضـــي أبو السعود رحمه الله تعالى فعرض للإعجاز البياني في قوله تعـــالى (وكذلـــك جعلناكم)، وجاء كلامه وسطاً بين ما جاء في الكشاف وما جاء في الـــبحر المحيط، فقال رحمه الله تعالى: " وتوحيد الكاف مع القصد إلى المؤمنين لما أن المـــراد مجرد الفرق بين الحاضر والمنقضي دون تعيين المخاطبين، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجة المشار إليه، وبعد منزلته في الفضل وكمال تميزه به وانـــتظامه بسببه في سلك الأمور المشاهدة، والكاف لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامـــة، ومحلها في الأصل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف، وأصل التقدير: جعلناكم أمة وسطاً جعلاً كائناً مثل ذلك الجعل، فقدم على الفعل لإفادة القصر".

ثم قال أبو السعود: " وقد روعيت ههنا نكتةٌ رائعةٌ هي أن الجعل المشار إليه عـــبارة عما تقدم ذكره من هدايته تعالى إلى الحق الذي عبّر عنه بالصراط المستقيم الـــذي هـــو الطـــريق الســـويُّ الواقـــع فـــي وسط الطرق الجائرة عن القصد إلى الجانبين..."[2]

وهذا البيان الذي بينه علامة البيان القرآني القاضي أبو السعود عليه رحمة الله تعـــالى يدل على علو كعبه وطول باعه في استنكاه واستنباط دقائق الإعجاز من النظم، وأن ما ذهب إليه ينتظم حقيقة مع نظم هذه الجملة القرآنية الفذة.

ذلكـــم مـــا يتعلق بـــ(وكذلك) التي افتتحت بها الآية الكريمة، وكان فيها من براعة البيان ما لا يخفى على الألبّاء وفرسان البيان.

---

(١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير(٢/١٥ -١٧)
(٢) أبو السعود، تفسير أبي السعود ١/٢١٢.

وأما جملة (جعلناكم) المؤلفة من المسند والمسند إليه، ويتبعها ويتعلق بها ثلاثة قيود فجاءت تحمل في مضامينها الأحكام والحكم، ذلكم لأن الفعل الماضي (جعل) المسند في الجملة إنما دل بمادته وصيغته على إعجاز بياني رائع، إذ مادة الجعل لها عدة معان منها: الإنشاء والخلق والتصيير، والحكم[1] وغيرها. والسياق هو الحكم في تحديد المعنى، وعند التأمل نجد الفعل (جعل) في جملة (جعلناكم) قد أفاد معنى التصيير لما في هذا المعنى من التداخل والتحول، ولذلك تعدى إلى نصب مفعولين، أولهما: الكاف، والثاني: (أمة)، وأما : (وسطاً) فنعت، وهي بمجموعها قيود للفعل (جعل)، وهو ما يناسب الهداية في قوله تعالى(يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)، ويناسب القرون المتلاحقة التي يعيش فيها المسلمون لتظل الوسطية عنوان المسلمين ما اختلف الملوان وتعاقب الجديدان، ولذلك جاء الفعل (جعل) بمادته يمد هذه المعاني، ويُثري الأمة الوسط بالتتابع والتلاحق وهو ما لا تجده في أي كلمة أخرى.

وأما الصيغة فظاهرة، وهي: " كونه مشتقاً من المصدر دالاً على معنى في الاسم لا يحتاج الاّ إلى صيغة واحدة، وتلك الصيغة هي لفظ الماضي، لأنه أخف وأشبه بلفظ الحدث"[2].

وهذه الصيغة تدل على تحقق الوقوع، وقد يُعبّر بالفعل الماضي عن المستقبل لتحقق وقوعه كقوله تعالى(أتى أمر الله فلا تستعجلوه)[3] فقد عبر عن تحقق وقوع القيامة بالفعل الماضي (أتى) للدلالة على يقين هذا اليوم.

وأما المسند إليه فهو نون العظمة(نا) المؤلفة من النون والألف وهي في موضع رفع فاعل، ومجيء المسند إليه ضميراً للمتكلم العظيم، فيه إشعار بأن هداية

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (جعل) ٢/٣٠٠- ٣٠١.
(٢) السهيلي، نتائج الفكر، ص٦٩.
(٣) سورة النحل، آية(١).

المسلمين إلى الصراط المستقيم، وتصييرهم أمة وسطاً، يناسب عظمة المتكلم سبحانه الذي أنعم عليهم بنعم لا تعد ولا تحصى (وأن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار)[1] وإذا أنعمت النظر في المسند إليه والمسند في قوله (جعلناكم) أدركت أن هذه الجملة هي الركن الركين في سياق الآية، لارتباط الجملتين بعدها بهذا الجعل، وأما الكاف في جملة (جعلناكم) فهي المفعول الأول للفعل (جعل)، وهي القيد الأول في النظم الكريم.

و(أمة) هي المفعول الثاني، و(وسطاً) نعت لـ (أمة)، و(أمة وسطاً) قيدان آخران في جملة (جعلناكم).

ولك أن تسأل عن معنى (أمة) في سياق الآية؟

والجواب: أن " الأمة هي القرن من الناس والصنف منهم وغيرهم" [2] هذا تعريف شيخ المفسرين الإمام الطبري، وهو التعريف الذي اعتمده ابن عطية إذ عرّف الأمة بأنها: " القرن من الناس".[3]

أما الزجاج – المعاصر للإمام الطبري – فعرّف الأمة بأنها: " الجماعة أي جماعة كانت، إلاّ أن هذه الجماعة وصفت بأنها وسط " [4].

وهذه التعاريف لا تخرج عن القول بأن الأمة هم الناس أو الجماعة عند الإطلاق، وهذه الأمة وصفت بالوسطية، وهو وصف يخرجها عن غيرها من الناس، ما دام المسلمون متمسكين بكتاب ربهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، وهو المحقق في كل عصر ومصر بإذن الله تعالى.

---

(١) سورة إبراهيم،آية(٣٤).
(٢) الطبري، جامع البيان، ٢/ ١٠.
(٣) ابن عطية، المحرر الوجيز ١/ ٤٣٧.
(٤) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه ٢١٩/١.

وأمـــا (وســـطاً) فاختلفت الأنظار في معناها، وتعددت الأقوال في مغزاها، قال الـــزجاج فـــي معـــنى الوسط:" قولان: قال بعضهم وسطاً: عدلاً، وقال بعضهـــم: خـــياراً، واللفظـــان مختلفان والمعنى واحد، لأن العدل خير، والخير عدل، وقيل في صفة النبي صلى الله عليه وسلم: إنه من أوسط قومه جنساً وهذا يعرف حقيقته أهل اللغـــة؛ لأن العـــرب تستعمل التمثيل كثيراً فتمثل القبيلة بالوادي والقاع وما أشبهه فخير الوادي وسطه، فيقال: هذا من وسط قومه. ومن وسط الوادي... ومعناه كله: مـــن خـــير مكـــان فـــيه، فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم من خير مكان في نسب العـــرب، وكذلـــك جعلت أمة وسطاً أي خياراً" [1]، وهذه المعاني التي ذكرها الزجاج أفاد منها من جاء بعده.

وقال أبو البقاء الكفوي في الكليات: " الوسط في الأصل هو اسم للمكان الذي يســـتوي إلـــيه المساحة من الجوانب في المدور، ومن الطرفين في المطول، كمركز الدائـــرة ولســـان المـــيزان من العمود، ثم استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط، (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) يعني متباعدين عن طرفي الإفراط فـــي كـــل الأمور والتفريط، ثم أطلق على المتصف بها مستوياً فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث كسائر الأسماء التي يوصف بها"[2].

وقـــال العلامـــة ابـــن عاشـــور: " والوسط في هذه الآية فسّر بالخيار لقوله تعـــالى(كنـــتم خـــير أمة أخرجت للناس)[3] ، وفسّر بالعدول...ووصفت الأمة بوسط بصـــيغة المذكـــر لأنه جامد فهو لجموده يستوي فيه التذكير والتأنيث مثل الوصف بالمصدر في الجمود والإشعار بالوصفية".

---

(١) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه ٢١٩/١.
(٢) الكوفي، الكليات ص٩٣٨.
(٣) سورة آل عمران،آية (١١٠).

ثم قال ابن عاشور: " وضمير المخاطبين هنا مراد به جميع المسلمين لترتبه على الاهتداء لاستقبال الكعبة فيعم كل من صلى لها، ولأن قوله (لتكونوا شهداء) قد فسر في الحديث الصحيح بأنها شهادة الأمة كلها على الأمم فلا يختص الضمير بالموجودين يوم نزول الآية " [1]

تلكم ثلاثة أقوال مختارة في بيان معنى (وسطاً)، القول الأول: قاله الزجاج وهو لغوي ضليع من أصحاب المعاني.

والقول الثاني: للكفوي صاحب المعجم المعتمد المعروف بالكليات.

وأما القول الثالث : فقد دبجه قلم العلامة ابن عاشور ، وكلامه بالجملة لا يخرج عن سابقيه، لكنه رتب عباراته باسلوب رصين، فأفاد وأجاد ، عليه رحمة الله تعالى.

وأما صاحب أضواء البيان فأوجز القول في تفسير الوسط وقال: " قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) الآية، أي: خياراً عدولاً، ويدل أن الوسط الخيار العدول قوله تعالى(كنتم خير أمة أخرجت للناس) وذلك معروف في كلام العرب " [2]

ومن أسرار النظم مجيء كلمة (أمة) نكرة فأشعرت بتفخيم شأن الأمة وتعظيم قدرها فضلاً عن تناولها كل عصر، وأعقبها بصفة (وسطاً) لتأكيد ما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة من طريق الوصف، فهي أمة عظيمة في ذاتها، معظمة بصفتها حيث جعلها العليم الحكيم أمة عادلة في شؤونها ومناحي حياتها، فقد اجتمعت في المسلمين ثلاث خصال لا تجدها عند غيرهم ، وهذه الخصال هي: "

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٨/٢.
(٢) الشنقيطي، أضواء البيان ١/ ٨٧.

العقـــل ، والعلم، والاعتدال في الأمور، فإن معجزة نبيهم صلى الله عليه وسلم هي: علم الله وكلامه، وهم الأمة الوسط" [1]

تلكـــم بعض مظاهر الإعجاز البياني الكامن في نظم هذه الجملة القرآنية الفذة اكتفيت بها روماً للاختصار، والله الموفق والهادي إلى الصواب.

(١) ابن تيمية، التفسير الكبير، ٦/ ٩.

المبحث الثاني

الإعجاز البياني في
قوله تعالى ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾.

أولاً : صلة الجملة بما قبلها.

حينما تنعم النظر في هذه الجملة والتي قبلها نجد الجملتين مرتبطتين ارتباطا وثيقاً، فالجملة الأولى (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) عرضت لجعل المسلمين أمة وسطاً، وكأن سائلاً سأل عن العلة من هذا الجعل العجيب، فجاءت جملة (لتكونوا شهداء على الناس) تبين" العلة لجعلهم وسطاً، فإن أفعال الله تعالى كلها منوطة بحكم وغايات لعلمه تعالى وحكمته، وذلك عن إرادة واختيار لا كصدور المعلول عن العلة كما يقول بعض الفلاسفة..." [1].

ولهذه العلة الرائعة ارتبطت جملة (لتكونوا شهداء على الناس) بأختها (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) وأخذت بحجزها، لما بينهما من علائق النظم، ووشائج القربى.

ثانياً: مع النظم القرآني في جملة (لتكونوا شهداء على الناس).

بعد بيان صلة هذه الجملة بأختها (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) نعيش مع نظمها النظيم ، وننعم النظر في تراكيبها لنستشف منها الفوائد البيانية الرائعة.

لقد بدئت الجملة بفعل الكينونة المقترن باللام (لتكونوا) وهذا البدء يحمل في مضامينه لطائف رقيقة من أسرار التنزيل منها:

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢/ ٢٠.

أن حـــرف الـــلام في (لتكونوا) من الحروف العوامل، وعمله في هذا السياق الجـــر، وهـــو في الظاهر مقترن بفعل (تكونوا)، وحرف الجر لا يدخل على الأفعال، وإنمـــا هـــو مـــن اختصاص الأسماء، وهذه مسألة تحتاج إلى إيضاح، فأقول وبالله التوفيق:

قال السمين الحلبي رحمه الله تعالى: " وهذه اللام فيها وجهان:

أحدهما: أن تكون لام كي فتفيد التعليل.

والثاني: أن تكون لام الصيرورة.

وعلـــى كـــلا التقديرين فهي حرف جر، وبعدها أن مضمرة هي وما بعدها في محـــل جر"[1] لأن فعل (تكونوا) منصوب بأن مضمرة، وأن الفعل في تأويل مصدر تقديره كونكم، والمصدر اسم يصح دخول حرف الجر عليه.

إذن مـــن بلاغـــة نظم هذا التعبير أن الجملة في ظاهرها فعلية والصحيح أنها اسمية، ولذلك جاز للسمين أن يقول : " وعلى كلا التقديرين فهي حرف جر".

هذا ما يتعلق بعمل اللام في السياق.

وأما معناها فقد ذكر السمين وغيره معنيين: التعليل والصيرورة، إذ إن حرف اللام هنا من الحروف العوامل في الإعراب والمعنى.

ومنها: مجيء المصدر مؤولاً وليس صريحاً.

ولـــك أن تسأل عن سر مجيء المصدر في هذا السياق مؤولاً وليس صريحاً، فلم يقل لكونكم وإنما قال (لتكونوا)؟

---

(١) السمين، الدر المصون، ١/ ٣٩٢.

يجيب عن هذا السؤال العلامة السهيلي في نتائج الفكر، يقول رحمه الله تعالى في بيان أسرار دخول (أن) على الفعل: " إن في دخول (أن) ثلاث فوائد:

إحداهما: أن الحدث قد يكون فيما مضى، وفيما هو آت، وليس في صيغته ما يدل على مضي ولا استقبال ، فجاءوا بلفظ الفعل المشتق منه مع (أن) ليجتمع لهم الإخبار عن الحدث مع الدلالة على الزمان.

الثانية: أنَّ (أنْ) تدل على إمكان الفعل دون الوجوب والاستحالة.

الثالثة: أنها تدل على مجرد معنى الحدث دون احتمال معنى زائد عليه، ففيها تحصين للمعنى من الإشكال، وتخليص له من شوائب الاحتمال".[1]

وهذه الفوائد الثلاث التي ذكرها الإمام السهيلي في سر دخول (أن) على الفعل لتنسبك معه في تأويل المصدر متحققة في عبارة (لتكونوا)، فقد أفادت الحدث، وأن التحول في الأمة الوسط ممكن، وحصنت المعنى من الاحتمالات التي قد يثيرها بعض الملاحدة لو جاء التعبير بالمصدر الصريح، وهذه من دلائل الإعجاز القرآني في هذا النظم الكريم.

ومنها: أن فعل الكينونة (لتكونوا) يحمل في طياته أسراراً بيانية رائعة، إذ الفعل بمادته يدل على التكوين والتحول، وهو ما يجعله متصلاً بفعل (جعلناكم) الدال على التصيير من حيث المعنى وقد مر آنفاً.

وأما صيغته فتدل على التجدد واستحضار الصورة، وهي وظيفة الفعل المضارع بيانياً، ولك أن تستحضر صورة الأمة الوسط وهي تقول كلمتها في الأمم في ذلك اليوم العظيم، يوم فصل القضاء بين الخلائق.

ومنها: أن عبارة (لتكونوا) جاءت خطاباً من الله تعالى للمسلمين لتتلاءم وتتناغم مع الخطاب الرباني في قوله تعالى (جعلناكم) الموجه إلى المسلمين أيضاً.

---

(١) السهيلي، نتائج الفكر، ص١٢٦.

ومـــن اللطـــائف فـــي التعبيرين أن المسلمين في خطاب (جعلناكم أمة وسطاً) جـــاءوا مفعولاً أولاً وثانياً ليقع عليهم الجعل، ولتتغير كينونتهم، وأما في (لتكونوا) فدلت الواو على المذكورين في (جعلناكم أمة وسطاً)، فضلاً عن بيان وظيفتهم وهي الشهادة على الأمم، فارتبط الفعلان وتعانقا، وحملا رسالة بيانية رائعة.

تلكـــم بعض مظاهر الإعجاز الكامن في (لتكونوا) أطنبت في بيانها لما تحمله في مضامينها من بيان قرآني رائع.

وأمـــا (شـــهداء) فهـــي خبر تكون، وهي المسند، أي أن الشهادة على الأمم مسندة إلى المخاطبين في (لتكونوا) أي المسلمين الذين جعلهم الله تعالى أمة وسطاً عدولاً خياراً.

وشهداء هو جمع شهيد وليس جمعاً لشاهد لسببين اثنين:

الأول : أن (شهيد) على وزن فعيل وهو من صيغ المبالغة، فأولى أن يكون شهداء جمعاً لشهيد حيث الشهادة يوم القيامة فيها من المبالغة كما هو معلوم.

الثاني: أن الآيـــة الكـــريمة ذكرت الرسول صلى الله عليه وسلم وجعلته شهيداً في قولـــه (ويكون الرسول عليكم شهيداً) فناسب أن تكون كلمة (شهداء) جمعاً لشهيد ليدل على أن الأمة الوسط بأكملها تشهد على الأمم، والرسول صلى الله عليه وسلم وحده هو الشهيد على الأمة الإسلامية يوم القيامة.

ولك أن تسأل عن شهادة البصر والبصيرة، ما الفرق بينهما؟

يجيـــب عن هذا السؤال الإمام أبو حيان قال رحمه الله تعالى: " ولما كان بين الـــرؤية بالبصـــر، والإدراك بالبصـــيرة مناسبة شديدة سمى إدراك البصير مشاهدة وشـــهوداً، وســـميّ العـــارف شاهداً ومشاهداً، ثم سميت الدلالة على الشيء شهادة عليه، لأنها هي التي بها صار الشاهد شاهداً "

ثـم قال أبو حيان: " وقد اختص هذا اللفظ في الشرع بمن يخبر عن حقوق الـناس بألفـاظ مخصوصـة على جهات"[1]. وهذه الشهادة المتعارف عليها بين الـناس أضـحت هـي المشهورة والمتعارف عليها عند الإطلاق ؛ ومع هذا اشترط العلمـاء شـروطاً لا بد من توافرها بمن يشهد هذه الشهادة في الدنيا أمام القاضي منها: الإسلام والعدالة والبلوغ وغيرها ولا مجال لتفصيلها في سياق البحث.

ومـن المفيد أن أذكر هنا أن الدَّين يحتاج إلى شهداء لحفظ الحقوق قال تعالى (واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون مـن الشـهداء أن تضـل إحداهمـا فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعـوا...)[2] فإذا كان النهي واقعاً على مَنْ يأبى من الشهداء أن يشهد إذا دعي إلى أمـر دنـيوي مـادي كالدين، فكيف الحال بدعوة الأمة الوسط للشهادة على الناس أجمعين عند فصل القضاء بين العباد.

إذن التعبير بـ(شهداء) يحمل في طياته من جزالة النظم ما لا يخفى. فحريٌّ بالأمـة الوسـط أن تكون أهلاً لهذه المهمة في الدنيا قبل الآخرة، وهي الأمة التي تحققـت فـيها العدالـة، قـال العلامـة محمد أبو زهرة رحمه الله تعالى في زهرة التفاسـير: " وهـنا إشـارة بيانـية يجب أن نذكرها، وهي أنه تعالى عدّى الشهادة بـ(على) دون اللام، فقال تعالى(لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) مع أن الشهادة قد تكون لهم، وقد تكون عليهم.

والجـواب عن ذلك أن الشهادة هنا حكم، أو هي منتظمة معنى الحكم، ولذلك تعـدت بعلـى، لتكون بمعنى الحكم، وقد تكون الشهادة بمعنى تعليم الناس، وشهادة

---

(١) أبو حيان، البحر المحيط، ٤٢٢/١.
(٢) سورة البقرة، آية ٢٨٢.

الرسول صلى الله عليه وسلم بمعنى تعليم أمته"[1] هذا جواب ارتأه العلامة محمد أبو زهرة رحمه الله تعالى.

وهناك جواب آخر يدل عليه بنية حرف الجر(على) فإنه يدل على الاستعلاء، والشاهد لا بد أن يكون مطلعاً على كل ما يشهد عليه، فالتعبير بـ(على) فيه إيماء إلى أن الأمة الوسط إنما تشهد على الناس لمعرفتها بالناس واطلاعها على أحوالهم ومعتقداتهم، ولذلك ناسب مجيء (على) دون غيرها من حروف المعاني.

وأما إل في كلمة الناس فهي جنسية، أي جنس جميع الناس، واختلف العلماء في هذه الشهادة على الناس هل تكون في الدنيا أو في الآخرة؟

ذهب بعضهم كالجصاص[2] وابن عاشور[3] إلى أن هذه الشهادة دنيوية وأخروية. " وما عليه الأكثر أنها في الآخرة وهي شهادة هذه الأمة للأنبياء على أممهم الذين كذبوهم"[4]، وهو ما ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يجاء بنوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم يا رب، فتُسأل أمتُه: هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير، فيقول: مَنْ شهودكم؟ فيقول محمد وأمته، فيجاء بكم فتشهدون، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً)[5] ، وهذا المعنى هو الأقوى كون النبي صلى الله عليه وسلم تلا الآية في نهاية الحديث، والله أعلم.

---

(١) أبو زهرة، زهرة التفاسير ١/٤٤٠.
(٢) الجصاص، أحكام القرآن ١/ ١٢٥.
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٢/ ٢٠.
(٤) أبو حيان، البحر المحيط ١/ ٤٢١.
(٥) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء برقم ٣٣٣٩ ,وكتاب التفسير برقم٤٤٨٧، وكتاب الاعتصام برقم٧٣٤٨

أرأيتم نظم هذه الجملة القرآنية وما فيها من دلائل الإعجاز، ودقة الإيجاز بما يـــأخذ بتلابيب العقول، ومجامع القلوب، فقد جاءت واسطة العقد بين جملة (وكذلك جعلـــناكم أمـــة وسطاً) وجملة (ويكون الرسول عليكم شهيداً) بما يكشف عن إعجاز بياني فريد، فلله در الإعجاز ما أعظمه!!.

المبحث الثالث

الإعجاز البياني في
قوله تعالى﴿ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

أولاً : صلة الآية بما قبلها.

ترتبط هذه الجملة بأختها (لتكونوا شهداء على الناس) بواو النسق لما بينهما من بلاغة الوصل حيث الاشتراك والتغاير بين الجملتين، ذلكم لأن شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم على الأمة الوسط إنما هي تكميل للشهادة الأولى التي تشهدها هذه الأمة على الأمم قاطبة، فناسب مجيء هذه الجملة متآخية متعانقة مع الجملة السابقة.

ثانياً : الإعجاز البياني في قوله تعالى (ويكون الرسول عليكم شهيداً).

بدئت هذه الجملة بواو العطف لإظهار صلتها بما قبلها، وجاء فعل الكينونة فعلاً مضارعاً منصوباً بأن مضمرة، لاشتراك هذه الجملة بما قبلها بنفس العلة حيث دخلت لام العلة على فعل الكينونة في قوله تعالى(لتكونوا...) أي (وليكون الرسول...). وقد أفاد الفعل المضارع (يكون) استحضار صورة تلك الشهادة العظيمة التي يؤديها أعظم مخلوق على خير أمة أخرجت للناس وظهرت في الوجود، ولذلك ناسب مجيء الفعل المضارع ليؤدي هذه الرسالة البيانية الرائعة في نظم الآية.

وأما كلمة (الرسول) فدلت على أن المراد به هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه اللام في (الرسول) عهدية، ولا يصح أن يُذكر رسول غيره صلى الله عليه وسلم في هذا السياق ألبتة.

وإذا تأملت النظم الكريم أدركت سر مجيء لفظ (الرسول) دون لفظ (النبي) في سياق الآية، ذلكم لأن الرسالة هي عنوان التبليغ، وهذه الرسالة هي القرآن الكريم الذي بلّغه صلى الله عليه وسلم لأمته (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)[1] ، لقد عصمه ربه سبحانه حتى يؤدي الرسالة الخاتمة رسالة الإسلام لتكون الأمة الإسلامية خير الأمم في العقل والعلم والمنهج، ولتشهد على الناس أجمعين.

قال أبو حيان: " لا خلاف أن الرسول هنا هو محمد صلى الله عليه وسلم، وفي شهادته أقوال:

أحدهما : شهادته عليهم أنه قد بلغهم رسالة ربه.

الثاني : شهادته عليهم بإيمانهم.

الثالث : يكون حجة عليهم.

الرابع : تزكيته لهم وتعديله إيّاهم، قال عطاء: قال:" هذه الأمة شهداء على من ترك الحق بين الناس أجمعين، والرسول شهيد معدل مزكٍ لهم ".

ثم قال أبو حيان: " ... وأما كون شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم سبباً لجعلهم خياراً فظاهر؛ لأنه إن كانت الشهادة بمعنى التزكية أو بأي معنى فسرت شهادته ففي ذلك الشرف التام لهم حيث كان أشرف المخلوقات هو الشاهد عليهم"[2].

والظاهر أن هذه الشهادة تكون يوم القيامة لقوله تعالى في سورة النساء (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا) [3] ، وبدلالة السياق

---

(١) سورة المائدة، آية(٦٧).

(٢) أبو حيان، البحر المحيط ١/ ٤٢٢.

(٣) سورة النساء، آية ٤١.

أيضـــاً، إذ دل قولـــــه تعالى (لتكونوا شهداء على الناس) على أن ذلك يوم القيامة، فقد فسر حديث البخاري هذه الآية وقد مر آنفاً.

وللعلامـــة ابن عاشور كلام رائع في تفسير هذه الجملة استميح لنفسي نقله لنفاسته، قال رحمه الله تعالى: " وقد دلت هذه الآية على التنويه بالشهادة وتشريفها حتى أظهر العليم بكل شيء أنه لا يقضي إلا بعد حصولها.

ويؤخـــذ مـــن الآية أن الشاهد سيشهد بما حصل له من العلم وإن لم يشهده المشـــهود عليه، وأنه يشهد على العلم بالسماع والأدلة القاطعة وإن لم ير بعينيه أو يسمع بأذنيه".

ثـــم يبيـــن ابـــن عاشور فضل التزكية وأهميتها فيقول : " وإنّ التزكية أصل عظـــيم فـــي الشهادة ، وأن المزكي يجب أن يكون أفضل وأعدل من المُزكّى ، وأن المُزكِّـــي لا يحـــتاج للتزكية ، وأن الأمة لا تشهد على النبي صلى الله عليه وسلم، ولهذا كان يقول في حجة الوداع ((ألا هل بلغت فيقولون: نعم، فيقول اللهم اشهد)) فجعل الله هو الشاهد على تبليغه، وهذا من أدق النكت"[1] .

انظـــر – رعـــاك الله – إلـــى هذا الترتيب البديع في هذه الآية الفذة ، الأمة الوسط – خير أمة أخرجت للناس– تشهد على الناس، ورسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤوف الرحيم يشهد على أمته ويزكيِّها بهذه الشهادة الرائقة الفائقة.

وأمـــا رســـول الله صلى الله عليه وسلم سيد الأولين والآخرين، ورسول رب العالميـــن فيشـــهد له ربّـــه سبحانه وتعالى الذي ربّاه، وزكّاه، واختاره رسولاً نبياً للناس كافة، وهذه هي التزكية التي لا تدانيها تزكية، والشهادة التي لا تسمو عليها شهادة.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٢/ ٢١.

ولك أن تسأل عن سر التعبير بـ (عليكم) دون لكم؟

يجيب عن هذا السؤال علامة البيان الإمام الزمخشري في فنقلاته بجوابين يقول رحمه الله تعالى في الجواب الأول: " فإن قلت: فهلاّ قيل لكم شهيداً وشهادته لهم لا عليهم. (قلت) : لما كان الشهيد كالرقيب والمهيمن على المشهود له ، جيء بكلمة الاستعلاء ، ومنه قوله تعالى (والله على كل شيءٍ شهيد)[1]، (كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)[2]"[3] ، وأما الجواب الثاني فجاء بصيغة التمريض(قيل)، إشارة منه إلى كونه مرجوحا، قال رحمه الله تعالى:" وقيل: لتكونوا شهداء على الناس في الدنيا فيما لا يصح إلاّ بشهادة العدول الأخيار (ويكون الرسول عليكم شهيداً) يزكيكم ويعلم بعدالتكم "[4] .

وقد أيّد أبو حيان الزمخشري في الجواب الأول قال:" ولما كان الشهيد كالرقيب على المشهود له جيء بكلمة (على)" [5] الدالة على الاستعلاء، وهو ما أرجحه لدلالة السياق عليه.

ومن هنا نرى الدقة الواضحة في التعبير القرآني، وأن كل لفظ يأتي في موضعه اللائق به فلو جاءت كلمة لكم في موضع (عليكم) لوقع اللغوي صاحب السليقة في حيرة ودخل عليه اللبس، ذلكم لأن القضية التي تتحدث عنها الجملة هي الشهادة، والشهادة في السياق إنما تلائمها (عليكم)، ولا تسد مسدّها كلمة أخرى.

ذلك ما يتعلق بـ (عليكم) من حيث دلالتها في سياق الآية.

---

(١) سورة المجادلة، آية(٧).
(٢) سورة المائدة، آية (١١٧).
(٣) الزمخشري، الكشاف،١/٢٢٥.
(٤) الزمخشري، الكشاف ١/٢٢٥.
(٥) أبو حيان، البحر المحيط ١/٤٢٢.

أمـــا تقديـــم (علـــيكم) في قوله تعالى (ويكون الرسول عليكم شهيداً) وتأخير (علـــى) في قولـــه (شهداء على الناس)، فيجيب عن هذا التقديم والتأخير الإمام ابن جـــزي فـــي التســـهيل، قال رحمه الله تعالى في جوابه: " إن تقديم المعمولات يفيد الحصـــر، فقدم المجرور في قوله (عليكم شهيداً) لاختصاص شهادة النبي صلى الله علـــيه وســـلم بأمـــته، ولـــم يقدمـــه فـــي قوله (شهداء على الناس) لأنه لم يقصد الحصر"[1].

وهـــذا الجـــواب إنما هو بسط لكلام الزمخشري إذ قال: " فإن قلت: لِمَ أخرت صـــلة الشهادة أولاً وقدمت آخراً؟. قلت: لأن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم، وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم "[2].

وقد جزم الإمام السبكي في عروس الأفراح بجواب الزمخشري دون أن ينسبه إلـــيه، قال رحمه الله تعالى: " أخرت الصلة في الشهادة الأولى، وقدمت في الثانية؛ لأن الغرض في الأولى إثبات شهادتهم، وفي الثاني: إثبات اختصاصهم بشهادة النبي صلى الله عليه وسلم"[3].

وأمـــا أبـــو حيان فلم يعجبه مذهب الزمخشري البياني القائل بأن تقديم الجار والمجـــرور يفـــيد الحصر، ولذلك نهج سبيلاً آخر في التعليل قال رحمه الله تعالى: "...وتأخـــر حرف الجر في قوله تعالى(على الناس) عما يتعلق به فقد جاء ذلك على الأصل إذ العامل أصله أن يتقدم على المعمول.

وأمـــا فـــي قوله (عليكم شهيداً) فتقدمه من باب الاتساع في الكلام للفصاحة، ولأن شـــهيداً أشـــبه بالفواصل والمقاطع من قوله (عليكم) فكان قوله (شهيداً) تمام

---

(١) ابن جزي ، التسهيل (٩٩/١).
(٢) الزمخشري، الكشاف، ٢٢٥/١.
(٣) السبكي، عروس الأفراح، ٤٧٥/١.

الجملـــة ومقطعها دون كلام "[1]. ثم تعقب أبو حيان الزمخشري ورد كلامه في إفادة الحصـــر، وقـــال بأنـــه " مبنـــي على مذهبه أن تقديم المفعول والمجرور يدل على الاختصاص"[2].

ويـــرى العلامة ابن عاشور أن التقديم يفيد الاهتمام لا الحصر، قال رحمه الله تعالى: " وتقديم الجار والمجرور على عامله لا أراه إلاّ لمجرد الاهتمام بتشريف أمر هذه الأمة حتى أنها تشهد على الأمم والرسل، وهي لا يشهد عليها إلا رسولها، وقد يكـــون تقديم (لتكون) الكلمة التي تختم بها الآية في محل الوقف كلمة ذات حرف مد قـــبل الحـــرف الأخير، لأن المد أمكن للوقف، وهذا من بدائع فصاحة القرآن، وقيل تقديـــم المجرور مفيد لقصر الفاعل على المفعول وهو تكلف ومثله غير معهود في كلامهم"[3] .

والمـــتأمل في كلام الزمخشري يدرك أن ما ذهب إليه أشبه بالصواب، وأقوى فـــي الدلالة على الاختصاص، فقد هش لكلامه أساطين البيان، متابعة لشيخ البلاغة الإمـــام عـــبد القاهـــر الجرجانـــي علـــيه رحمـــة الله تعـــالى الذي ذهب إلى القول بالاختصاص.

وإذا أمعنت النظر في كلام أبي حيان وابن عاشور أدركت أن النظم يأباه؛ ذلكم لأن القول بالفواصل والألفاظ لا يتفق ودقة الإيجاز، وروعة الإعجاز، إذ المعاني هي الأصل والألفاظ إنما تكون تبعاً لها، وهو ما لا يخفى على أهل البيان، هذا أولاً.

وأمـــا ثانياً: فإن العلامة ابن عاشور قد قرر الاختصاص في شرحه وبيانه إذ قال " وهي لا يشهد عليها إلا رسولها" وهذا القصر بـــ(لا) و(إلاّ) يفيد الاختصاص.

---

(١) أبو حيان، البحر المحيط،٤٢٢/١.
(٢) أبو حيان، البحر المحيط،٤٢٢/١.
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير٢/ ٢١-٢٢.

وأمـــا ما ذهب إليه بشأن حرف المد وما إلى ذلك، فلا يستقيم لأن هذه الجملة (ويكون الرسول عليكم شهيداً) ليست رأس آية وإنما هي جملة في مضامين آية.

ولابـــن المنير نظرة أخرى حريّة بالتقدير والإعجاب، فقد نظر إلى المنة على الأمـــة الوســـط فـــي الجملتين، قال رحمه الله تعالى في تعقبه على الزمخشري:"قال أحمد: " لأن المنة عليهم في الطرفين، ففي الأولى بثبوت كونهم شهداء، وفي الثاني بثبوت كونهم مشهوداً لهم بالتزكية خصوصاً من هذا الرسول المعظم صلى الله عليه وســـلم، ولـــو قدم شهيداً لانتقل الغرض إلى امتنان على النبي عليه الصلاة والسلام بأنـــه شـــهيد، وســـياق الخطـــاب لهم والامتنان عليهم يأباه، وإنما أخذ الزمخشري الاختصـــاص من التقديم لأن فيه إشعاراً بالأهمية والعناية. وكثيراً ما يجري ذلك في أثناء كلامه، وفيه نظر"[1] .

هـــذا مـــا دبجه يراع ابن المنير وهو كلام يستحق التقدير حقاً، فقد نظر إلى تقديـــم وتأخير شهداء، وشهيداً، ولا مانع من قبول قوله كونه يتفق ونظم الآية وما فيها من روعة الإعجاز ودقة الإيجاز.

ولك أن تسأل عن السر البياني في مجيء (شهيداً) على وزن فعيل دون شاهد على وزن فاعل، وعن سر تنكير هذه الكلمة؟

والجـــواب عن هذا السؤال أن شهيد على وزن فعيل كونها من صيغ المبالغة، وفـــي هـــذا التعبير من جزالة النظم وبلاغة التعبير ما لا تجده في كلمة شاهد، هذا أولاً.

وأما ثانياً: فإن شهيداً تتناسب مع كلمة شهداء فلم تأت كلمة شهود، إذ دلالة شهداء أبلغ من شهود، وكذلك شهداء هي جمع شهيد وليس (شاهد).

---

(١) ابن المنير، حاشيته على الكشاف ٢٢٥/١.

وأمـــا تنكير الكلمة ففيها من التعظيم لهذه الشهادة ما لا يخفى، فإنها شهادة عظيمة من أعظم مخلوق هو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أرأيـــتم هـــذا الإعجـــاز البيانـــي في الجملة، كيف ناسب ما جاء في الجملة الســـابقة، فالجملـــتان تشـــتركان بالعلـــة الكامنة بفعل الكينونة (لتكونوا) (ويكون) وشـــهداء هـــي جمع للأمة الوسط، وشهيد لسيد الثقلين صلى الله عليه وسلم الذي يشهد للأمة الوسط شهادتها على الأمم يوم القيامة.

تلـــك بعض لطائف الإعجاز البياني في آية ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ .

هـــذه الآيـــة الفـــذة التـــي تحمل في مضامينها مسؤولية هذه الأمة في الدنيا والآخـــرة، وأنها أمة الاعتدال والوسطية في الأقوال والأفعال، والحركات والسكنات، وهـــي الأمة التي حمَّلها الله تعالى مسؤولية الشهادة على الأنبياء وأممهم يوم فصل القضاء بين الخلائق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الخاتمة

بعد هذا التطواف الممتع في رياض آية الأمة الوسط استخلص النتائج الآتية:

١. أن الله تـــبارك وتعـــالى قد اختار هذه الأمة الوسط لتكون أمة العدل في الدنيا والآخـــرة، وأن هـــذه الأمة الوسط بصفاتها الرائعة استأهلت أن تشهد على الناس كافة يوم القضاء، ولتكون صاحب القول المعتمد.

٢. إن الأمـــة الوسط إنما نالت هذه المرتبة السامية والدرجة المنيفة لأنها شَرُفتْ بشـــهادته صلى الله عليه وسلم، واستحقت وسام التزكية من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٣. حـــريٌ بالأمة الإسلامية أن ترجع إلى كتاب ربها، وسنة نبيها صلى الله عليه وســـلم لـــتعود إلى مكانتها التي أرادها الله لها وجعلها الأمة الوسط في الدنيا والآخرة.

٤. مـــن تـــأمل الـــنظم القرآنـــي فـــي الآية أدرك أن فيها إقناعاً للعقل، وإمتاعاً للعاطفـــة،وأنهـــا تخاطـــب الخاصـــة والعامة، وتأخذ بمجامع القلوب وتلابيب العقول، وتنادي أمة القرآن لتأخذ مكانتها اللائقة.

والله أســـأل أن يجعـــل عملي خالصاً لوجهه الكريم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المراجع والمصادر

- **البخاري** : محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري (متن الفتح)، دار السلام / الرياض ، ط١- ٢٠٠٠م.
- **ابن تيمية**: تقي الدين احمد، التفسير الكبير، تحقيق: الدكتور عبد الرحمن عميرة ، دار الكتب العلمية/ بيروت، لبنان، د.ت.
- **ابن جزي**: محمد بن أحمد، التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق: الدكتورعبدالله الخالدي ، دار الأرقم/ بيروت.
- **الجصاص** : أبو بكر أحمد الرازي، أحكام القرآن، دار الفكر/ بيروت ١٩٩٣م.
- **أبو حيان** : محمد بن يوسف، البحر المحيط، دار الفكر/ بيروت ط٢، ١٩٨٣م.
- **الرازي**: محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط١٩٩٠م.
- **رضا**: محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم، المشهور(بتفسير المنار)، خرج أحاديثه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية/ بيروت، لبنان.
- **الزجاج**: أبو إسحاق إبراهيم بن السري، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق:الدكتور عبد الجليل شلبي، عالم الكتب.
- **الزمخشري**: أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل، دار الريان للتراث/ القاهرة ، ط٣ ١٩٨٧م.
- **أبو زهرة**: محمد، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي/ القاهرة.
- **ابن السبكي**: بهاء الدين أحمد بن علي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق: الدكتور ابراهيم خليل ابراهيم ، دار الكتب العلمية/ بيروت ، ط١، ٢٠٠١م.
- **أبو السعود**: محمد بن محمد العمادي، تفسير أبي السعود المسمى (ارشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، وضع حواشيه عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية/ بيروت ط١- ١٩٩٦م.

- **السمين الحلبي:** أبو العباس بن يوسف، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون تحقيق: علي محمد معوض ورفيقه، دار الكتب العلمية/ بيروت.
- **السهيلي:** أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، نتائج الفكر في النحو، تحقيق: الدكتور محمد ابراهيم البنا، دار الإعتصام، ١٩٨٤م.
- **الشنقيطي:** محمد الأمين، أضواء البيان، عالم الكتب، د.ت.
- **الشهاب الخفاجي:** أحمد بن محمد بن عمر، حاشيته على البيضاوي، ضبط: عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية/ بيروت.
- **الصاوي:** أحمد، حاشية الصاوي على الجلالين، ط١ – دار الفكر/ بيروت، ١٩٩٨م.
- **الطبري:** محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل آي القرآن.
- **ابن عاشور:** محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية/ تونس،١٩٨٤م : موجز البلاغة، المطبعة التونسية، ط١.
- **ابن عطية:** أبو محمد عبد الحق، المحرر الوجيز، تحقيق: أحمد صادق الملاح المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
- **الكفوي:** أبو البقاء أيوب بن موسى، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، مؤسسة الرسالة/ بيروت، ١٩٩٢م.
- **ابن منظور:** لسان العرب، اعتنى بتصحيحه: أمين محمد عبد الوهاب ورفيقه، دار إحياء التراث العربي/ بيروت– لبنان، ط٣– د.ت.
- **ابن المنير:** أحمد بن محمد، الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، حاشية الكشاف– دار إحياء التراث العربي/ بيروت / لبنان ، ط١، ١٩٩٧م.
- **الواحدي:** علي بن أحمد، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تحقيق: محمد حسن أبو العزم، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية/ القاهرة ١٩٩٩م.